

قد أعطى الباحثين تعريفات مختلفة، فتعددت الآراء حوله. فقد عرّفه المرزوقي في كتابه "الادب الشعبي" الأدب الشعبي هو ذلك الذي استعار المستشرقون له من أوروبا فلكلور على خلاف صحة اختلاف هذه الكلمة على ما نسميه بالأدب الشعبي بالضبط⁽¹⁾

ويقول عنه أيضاً " الأدب الشعبي رباط وثيق لكل أمة يولد معها ويتعرّج بجوارها ويتربى في تربتها ويرضع من ثديها ويختبر كل الحياة حلوها ومرها"⁽²⁾ ، وتعرفه نبيلة ابراهيم بأنه " فن يوجّه الفرد الذي يعيش في إطار نحو التماسك والوحدة"⁽³⁾ والباحث أحمد صالح الشدي قال " الأدب الشعبي هو مجمل الفنون القولية التلقائية منقولة بلهجة دارجة من جيل لجيل بشكل شفاهي وهي تعبير عن تفاعل الإنسان مع الإنسان ومعارفه وأحاسيسه، ومشاعره تشمل هذه الفنون الحكاية الشعبية، المثل الشعبي الأغنية الشعبية، النادرة، النكت، نداءات الباعة ، الألغاز الشعبية، الأشعار الشعبية"⁽⁴⁾

وعليه فإنّ الأدب الشعبي مستوحى من عامة الناس، ومن نظامهم الاجتماعي اليومي، وهناك فئة من المؤلفين جنحوا إلى هذا الرأي ولكن بنظرة أوسع " إن الأدب الشعبي هو أدب العامية إن كان شفاهياً أو مكتوباً أو مطبوعاً أو كان مجهول المؤلف أو معروفاً متوارث عن السلف"⁽⁵⁾

ويعرفه آخرون "ذلك الأدب المعبر عن ذاتية الشعب المستهدف. تقدمه الحضاري الراسم لمصالحه يستوي فيه أدب الفصحى والعامية وأدب الرواية الشفاهية"⁽⁶⁾

ومنه نستنتج أهم ما خلص إليه الدارسون، هو أنّ هذا الأدب هو أدب المطبعة و الأثر المجهول المؤلف والأثر المعروف المؤلف ،وبالتالي هو شفوي (بالحديث والغناء والسماع) ويمثل ثقافة حيّة يعتنى بها وتخمل وتنقل من جيل الى جيل ، وعندما يضيع من الذاكرة يندثر على نقيض الأدب المدوّن الذي يسهل حفظه ونفله وتذوق كل جوانبه⁽⁷⁾

والأمثال الشعبية فن من فنون الأدب الشعبي، الذي يمثل الثقافة الشعبية التي تختزنها الذاكرة الجماعية، فهي موروث ثقافي زاخر. " المثل ونجد التعريف اللغوي لا بن منظور يقول مثل كلمة تسوية يقال هذا مثله كما يقال هذا شبه وشبهه و المثل كالمثل و الجمع أمثال والمثل الشيء الذي يضرب بالشيء فيجعله مثله ويقال تمثّل فلان، ضرب مثلاً وتمثّل بالشيء وقد يكون المثل بمعنى العبرة"⁽⁸⁾

تعددت المفاهيم عند الباحثين في تعريف المثل فقد تطرق الدارسون المحدثون إلى ضبط تعريف للمثل فقال طه حسين في هذا الصدد " إنّها قمة البلاغة وأبدع أنواع الاختصار والاختزال في حكمة بالغة فيها جميل الارشاد للسامع وحتى تذكرة وحتى تذكرة له بصورة الماضي ومعلومة بحدث تاريخي ارتبط بالمثل عليه من دليل توجيهه ويستقيم عوده ويتكامل بنيانه.. وهو مزاج من نصح وهداية على قدر كل نفس وما لديها من ملكات تنهل منه ما تقنع نفسه"⁽⁹⁾ وللمثل على حسب طه حسين أثر نفسي على السامع.

المثل هو خلاصة تمرات تجارب الناس وحياتهم اليومية، تصف أحوالهم العقلية والثقافية والأدبية إذن هو "تشبيه شيء بشيء وتقريب المعقول من المحسوس، والمثل في الأصل بمعنى النظير، يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه"⁽¹⁰⁾ ، فالمثل الشعبي هو ملاحظات يومية قائمة على التشبيه ومع مضي الزمن انتشرت بين الناس .

وإذا أردنا الحديث عن الأدب الشعبي في الجزائر يجب العودة إلى التاريخ للحديث عن الأدب الشعبي في الجزائر يفرض علينا التوقف في الفترة الاستعمارية التي حاول فيها الاستعمار الفرنسي قمع الثقافة الجزائرية، لكن على حسب تقصي الباحثون لهذا الموضوع فإنّ الجزائر تمسكت بثقافتها واستخدمتها كسلاح ضدّ العدو وبالتالي المثل الشعبي هو ذلك التعبير الصادق عن التجارب الانسانية، ولهذا دراسته كانت تبلغ من الأهمية ما تبلغ. ففي توطيد الحاضر والماضي وربط آمال الشعب المستقبلية.

وربما البحث في هذه الأمثال ودراستها، هو حفر في الذاكرة العربية وفي الموروث العربي، الذي يمثل الأصالة. وبطبيعة الحال فالاهتمام بهذا المجال هو بالدرجة الأولى حفاظ على الهوية العربية.

ويزداد البحث في هذا المجال خلال الفترة الأخيرة، وذلك يرجع لأسباب عدة، من بينها انفتاح العرب على العديد من العلوم الانسانية.

المثل الشعبي هو نابع من تجربة حقيقية وواقعية عاشها أصحابها، في مكان محدد وفي زمان محدد، فهو تعبير حقيقي، ولذلك تبقى للمثل مكانة متعلقة بمقاييس أخلاقية، فهة يسعى لتهذيب النفس وتقويمها وذلك وفقا لتجربة معينة لفترة عاشها فرد ما.

فيبقى للمثل صفته الجوهرية غير محدودة بزمان فهذه الوظيفة التي اتسم بها المثل تغلغلت في المجتمع، كما يقول المثل الشعبي الجزائري "حط يدك على قلبك اللي ضرك يضر صاحبك"⁽¹¹⁾ وفي هذا الصدد قالت الكاتبة نبيلة ابراهيم "وكثيرا ما يشعرنا المثل بنقص في عالمنا الأخلاقي، وليس هذا سوى انعكاس لما يسود عالمنا التجريبي من عيوب أخلاقية، فوظيفة المثل تبقى على اتفاق الدارسين وظيفه ترشيديه تعليمية، تعبّر عن ذواتنا وعن علاقاتها مع الواقع والمجتمع.

ومن البحوث التي انصبت في هذا الموروث الثقافي هي صورة المرأة في الثقافة الشعبية، فقد اهتم العرب بالمرأة في الأمثال الشعبية إذ نجد في كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه "فصلا بعنوان (من يضرب له المثل من النساء) وقال في كتابه أيضا (أشأم من البسوس، وأمنع من أم قِرْفَة، أحقق من دغة، أبصر من زرقاء اليمامة)"⁽¹²⁾ فهي تعد عنصرا هاما وفعالا في رسم معالم هذه الثقافة. وصورة المرأة تصنع جدلا متميّزا وذلك من خلال التناقض بين ما تعيشه المرأة حاليا، والشعارات التي تنادي باستقلالية المرأة وبحقوقها المدنية وبمساهمتها مع الرجل، وبين ما كانت تعيشه في الزمن الماضي.

ومن هذا المنطلق زاد اهتمامنا بهذا الموضوع، الذي يندرج فيه مقالنا و الذي حفّزنا على هذه الدراسة هو قراءتنا لتلك الأمثال الشعبية المنسوبة للشاعر الشعبي عبد الرحمان المجذوب " فإذا ألقينا نظرة شاملة على رباعيات الشيخ المجذوب ألقينا جلها يدور حول مواضيع طالما اشتغل بها بال الشعراء وأهل الأدب والفن في كل الأقطار والأزمان كأموال الديانة والحياة الزوجية والعائلية والفقر والغنى والمغازلة وحيل النساء وكيدهن"⁽¹³⁾

ويعد هذا المرجع من أهم مراجع الأمثال الشعبية في منطقة المغرب العربي، وجوهر الجمال والأمثال الشعبية هو أنها غير مرتبطة بأي زمان ومكان، فرباعيات عبد الرحمان المجذوب تعود إلى القرن الحادي عشر إلا أنها أوجدت لها مكانا في زخم النتاج الأدبي والفكري وجميع الفنون الحديثة والمعاصرة.

وربما نستطيع أن ننعتّه بالخطاب السلطوي وذلك لسحرة وتأثيره على ذهنيات وسلوكيات المجتمع " فإن المغاربة من جيل إلى جيل يعيدون صياغة أشعار أو منظومات المجذوب لينطبق ما قاله عن القرن الحادي عشر وعلى القرن الثاني عشر... فالشاعر المجذوب مازال إلى الآن يعتبر من أهم المعبرين عن ما يختلج في صدور الناس " (14)

وبذلك يقر العديد من الباحثين ، فإن التراث بشكل عام يمارس سلطة على عقول الناس وفي تفاصيل حياتهم اليومية ، ومنه لا يمكن ضبط الأمثال الشعبية بزمان " فهي تتحرك في زمن مفتوح وزمن غير محدود " (15) فالأمثال الشعبية من هذا المنطلق هي لا زالت حاضرة ومؤثرة في حاضر ومستقبل الإنسان.

يختزل خطاب الأمثال الشعبية صورا عديدة عن المجتمع وواقع الحياة اليومية، ومن بين هذه الصور صورة المرأة، التي استلهمت قرائح الشعراء وأسالت الكثير من الحبر وأثارت جدلا كبيرا.

نجد العديد من البحوث تتحدث عن صورة المرأة ، إذ نلتمس تشابهً عاما في بعض المجتمعات ، حيث تهيمن التربية التقليدية على الممارسات الاجتماعية ، لكن ربما هذه البحوث لا نجد لها تأسيس إلا إذا قسناه على الواقع ، فبحثنا يطرح اشكالية صورة المرأة وانعكاسها على ذهنيات وسلوكيات المجتمع ، ووظيفتها في التنشئة الاجتماعية من خلال تطبيق لبعض الأمثال الماثورة عن المرأة وذلك باستجواب فئة من المجتمع حول إذ ما كانت الأمثال الشعبية تمثل الصورة الحقيقية للمرأة ؟.

3. صورة المرأة في الأمثال الشعبية الجزائرية :

تشرب المجتمع الجزائري من تعاليم الدين الإسلامي وأخذ منه قيمه ، فهو مجتمع محافظ ومتمسك بدينه وعروبه، لكنه قد تأثر بعدة عوامل تاريخية واجتماعية وأدبية ، وانعكس ذلك على ما ينتجه من أشكال أدبية متنوعة ومن الأشكال التي ذاع صيتها نجد الأدب الشعبي وبخاصة الأمثال الشعبية ، التي أعطت صورة للحياة اليومية للجزائري ، وهذه الحياة تبرز فيها المرأة كعنصر بارز ومأثر في أحداثها.

وصورة المرأة قد تظهر لنا من خلال أمثال عبد الرحمان المجذوب ، التي يتداولها الجزائريون مشافهة "الصورة هي ذلك البناء الذهني الذي يتم على مستوى الذاتية والرمزية والخيال ، والذي يرتبط بالواقع الإنساني وعندما نتحدث عن الصورة فنحن نتحدث عن كيانات مجازية نحيا بها وتؤطر حياتنا وسلوكنا في إطار المجتمع ، فالمجاز يرمز إلى نمط تفكير يرمز إلى حقائقنا الواعية واللاواعية خصوصا إذا كان مجازا كما هو الحال في المثل الشعبي " (16)

ويمكن أن ندرس صورة المرأة عبر حقول دلالية مختلفة من ناحية صفاتها وعلاقتها مع الآخر ومختلف سلوكها ونشاطها ، وفي هذا السياق نجد صورتين متناقضتين للمرأة، صورة إيجابية وصورة سلبية ، فالتحيز ضد المرأة يظهرها وكأنها كائن مهمش ، يعيش في فضاء مكبوت ومراقب، وكذلك يرسم لها صورة إيجابية من خلال سلوكها ونشاطها اليومي في المنزل العائلي .

ومن خلال هذه المعطيات التي جمّعها المثل على المرأة قمنا باختيار أهم الأمثال التي قيلت في المرأة ، ومربط فرس دراستنا هو مدى تصديق المجتمع لهذه الأمثال فقمنا باختيار مجموعة منها ، لعرضها على فئة معينة من المجتمع قاموا بالإجابة عنها (بنعم أولا) ونموذج الاستبيان التالي يبيّن ذلك :

صورة المرأة في الأمثال الشعبية

بحوصي نبيلة-جامعة طاهري محمد - بشار

العمر* من 20 سنة الى 30 ☐ أكبر من 30 سنة ☐الجنس ذكر ☐ أنثى ☐

هل تمثل لك الأمثال الشعبية التالية الصورة الحقيقية للمرأة في المجتمع؟ أجب بنعم أو لا

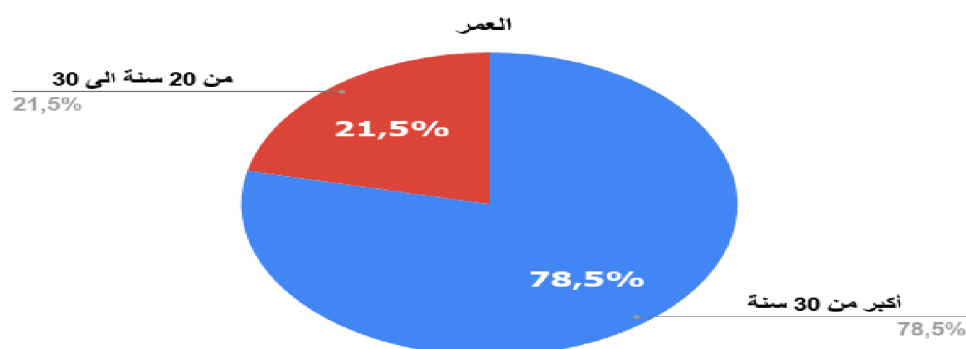
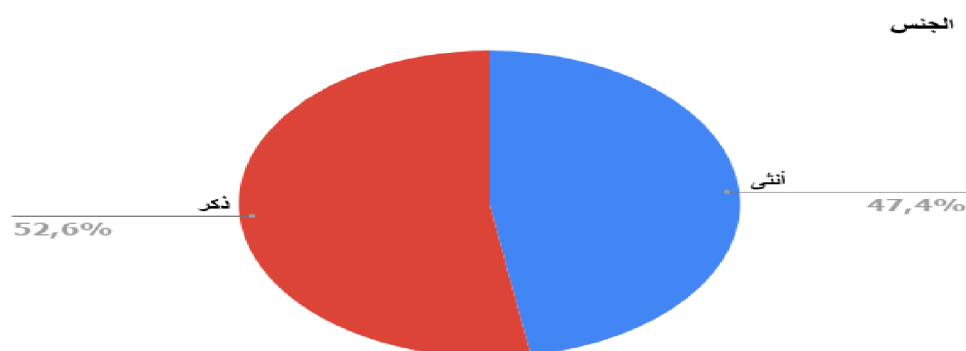
دار بلا مرا تولى مظلمة نعم ☐ لا ☐اللي بأمه يتوسد الركبة وللي بباه يتوسد العتبة نعم ☐ لا ☐البنات عمارة الدار نعم ☐ لا ☐النساء هدرتكم ما تنحصى ومقرتهكم ما تنحصى نعم ☐ لا ☐لي معندوش أخوات ما عرفوه الناس باه مات نعم ☐ لا ☐الدار والمرا ما فيهم شركة نعم ☐ لا ☐☐ما في الشتاء ريح دافي وما في النسا عهد وافي نعم ☐ لا ☐كل بليّة سبابها وليّة نعم ☐ لا ☐الخير مرا والشر مرا نعم ☐ لا ☐الله يجعل لي في كل اثنينه وليّة نعم ☐ لا ☐من يوم ما ماتت المرحومة ما كليت كسرة مرقومة نعم ☐ لا ☐النسا كيدهم ما يتنسى نعم ☐ لا ☐

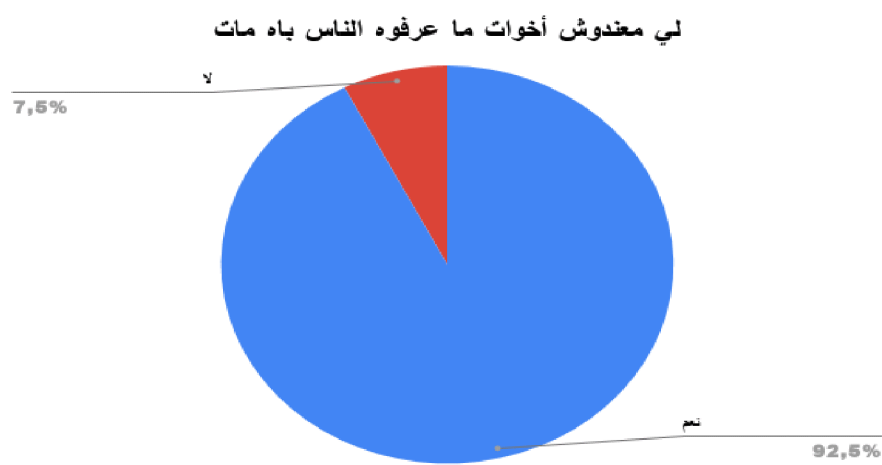
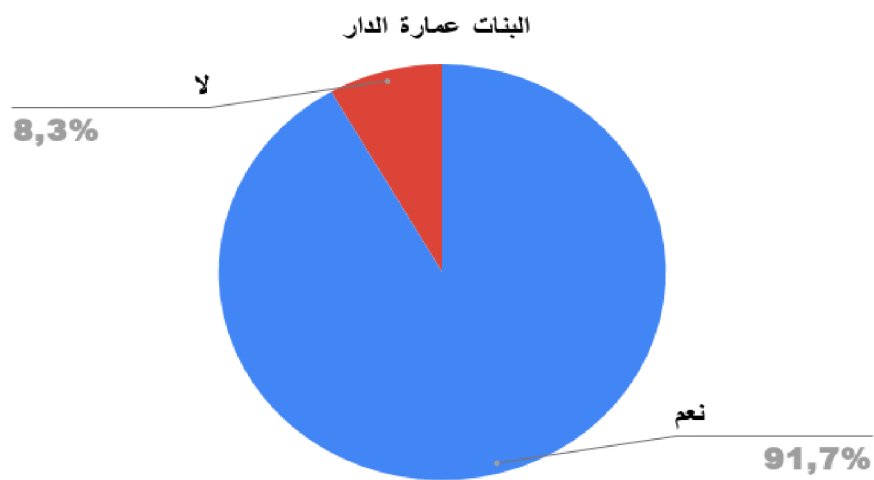
ارسال

إذن نرفع الأقلام هنا لنقرأ نتائج الاستبيان الذي قمنا به على فئة من المجتمع ، والذي طرحنا فيه مجموعة من الأمثلة الشعبية الأكثر شهرة في الجزائر، والتي تتناولها الألسنة كثيرا في منطقة الجنوب. فلا يمكننا الفصل في مشكل صورة المرأة في المثل الشعبي إلا بعد الاستبيان الذي يعكس مدى تأثير هذه الأمثال الشعبية على عقلية وذهنية المجتمع ، حيث ملأ الاستبيان 135 شخص من أعمار مختلفة من عشرين سنة وما فوق ، وكانت نسبة المشاركة 47.4 بالمائة بالنسبة للإناث و 52.6 بالمائة بالنسبة للذكور .

ونسبة المشاركون التي تقل أعمارهم عن الثلاثين سنة بلغت 21.5 بالمائة و 78.5 بالمائة بالنسبة للفئة التي تفوق أعمارهم ثلاثين سنة .

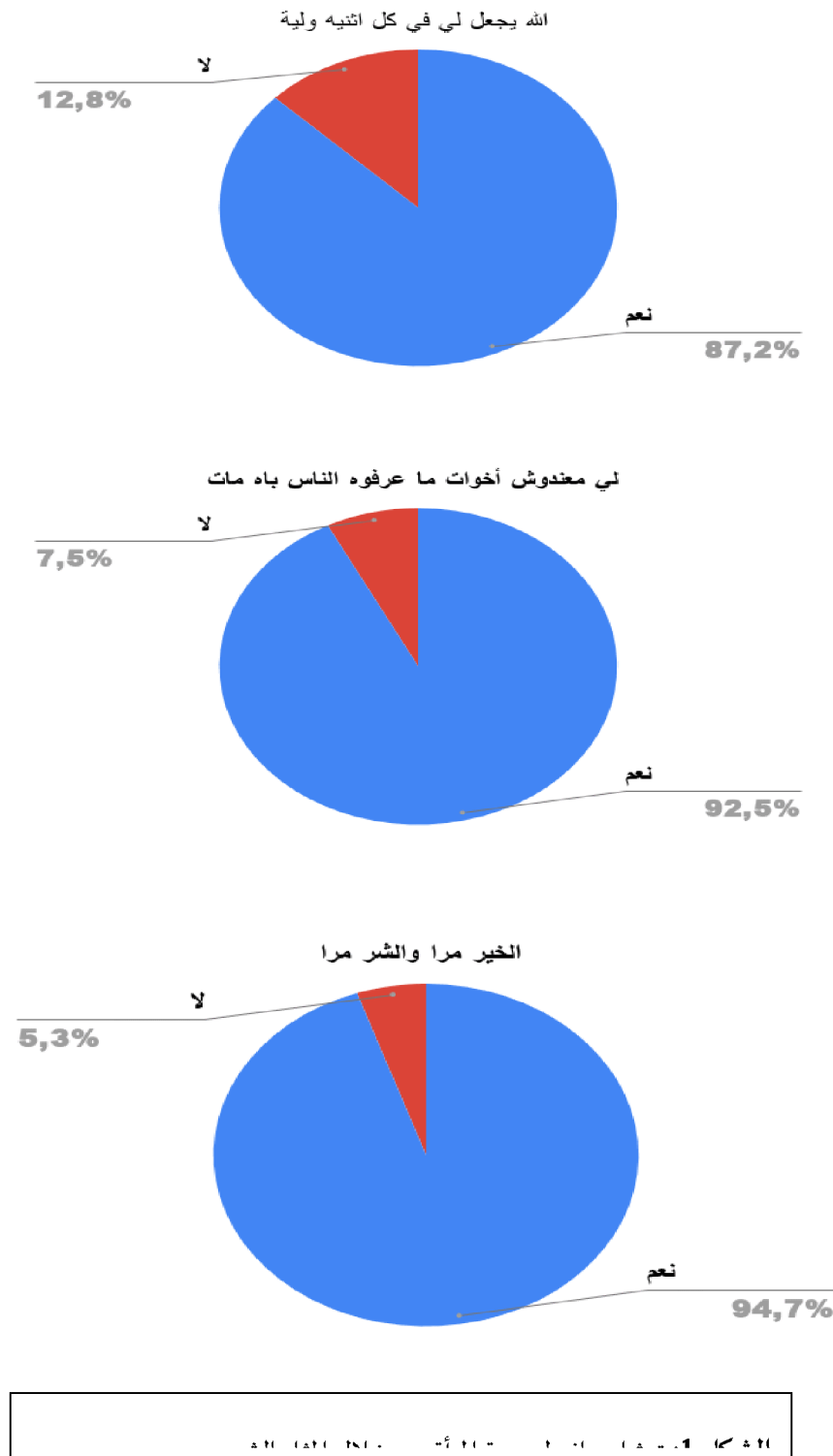
وقد تمّ جمع آراء كل الفئات على شكل تمثيل بياني وهي في الشكل التالي:











تبين لنا أنّ المثل الشعبي يحظى بقبول لدى المجتمع وبه ترتسم لنا صورة المرأة ونظرة المجتمع لها، ولا يمكننا القول بأنها سلبية أو إيجابية، فإنّ الذي يقدّر المرأة هو كذلك يراها لا تأمن العهد، فبالنسبة لنتائج الاستبيان هي إيجابية لأن الأغلبية أجابت بنعم. نعم توافق هذه الفئة من المجتمع على صحة هذه الأمثال الشعبية التي قيلت في المرأة.

فالمثل الشعبي الذي يقول "الدار بلا مرا مظلمة" 98 بالمائة قالوا نعم، معناه فعلا المرأة تطفي على البيت النور والفرح، فهي روح هذا البيت.

وكذلك نجد المثل الذي يقول : " اللي بأمه يتوسد الركبة واللي بباه يتوسد العتبة " حاز هذا المثل على 88 بالمائة ، تقبل الناس ويمكن القول يعبر عن قداسة الأم في المجتمع الجزائري

وحظي كذلك المثل القائل : " البنات عمارة الدار " بقبول واسع ، وكذلك المثل القائل "اللي ما عندوش أخوات ما عرفوه الناس باش مات ""والله يجعل في كل ائنية وليه " .

كل هذه الأمثال تكشف عن مدى تعلّق الناس بالمرأة لكنّ في إطار أن تكون هذه المرأة تمثل المنفعة أو تدفع عنهم الضرر.

وبالنسبة للأمثال التي تعطي صورة مختلفة للمرأة عن الأمثال السابقة، والتي تتضمن ربما إنقاص لقيمة المرأة، وتكرس النظرة الدونية لها.

ومثل هذه الأمثال نجدها كثيرة لا تحصى. وتتلّخص في أهم الصفات وهي: الغدر والخيانة، الحقد و الشر وكثرة الكلام..وما أدرجناه في الاستبيان نذكر منه : " النسا كيدهم ما يتنسى " وكذلك " ما في شتا ربح دافي وما في النسا عهد وافي " . حظيت هذه الأمثال كذلك بالقبول عند هذه الفئة من المجتمع فالأغلبية أجابت بنعم، فهي بالنسبة لهم تعكس الصورة الحقيقية للمرأة في المجتمع.

إذن نستنتج أنّ عقلية المجتمع ترفض المرأة خارج أوصار البيت ، ترفض الشراكة معها وترفض التعاهد معها مع العلم أن هذه الفئة تتكون من ذكر وأنثى. وعليه تظهر المرأة مهمشة مرفوضة في المجتمع الذي هي جزئ منه . فهي في البيت تعبر عن الحنان والود ، السعادة الفرح إما زوجة أو أخت أو أم أو ابنة.

4. النتائج المستخلصة

المثل الشعبي له قبول كبير عند شريحة مهمة من المجتمع، إذ يمثّل لهم الانتماء والأصالة حيث استنتجنا ذلك من عدد الأفراد الذين أجابوا على الاستبيان في ظرف يومين.

المثل الشعبي بطريقة غير مباشرة يؤثر في سلوكيات المجتمع الجزائري ، إذ تظلّ هذه الأمثال راسخة في أذهانهم تورث من الجدّ إلى الأب ..

يضع المجتمع الجزائري ثقته الكاملة في أقوال السلف وفي تجارب حياتهم إذ تتداول في ألسنتهم مقولة : "قالوها ناس زمان " أو " ناس بكري ما خلونا ما نقولو"....

تشهد هذه الأمثال الشعبية على مكانة المرأة في المجتمع، وكذلك تظهر مدى شيوعها وتغلغلها في الفكر الإنساني.

القيم الموجودة في الأمثال المدروسة تعكس سلوك هذا المجتمع فهو يمارسه في اللاوعي الجمعي ، ولا يلتفت إلى تلك الأصوات المنادية بحقوق المرأة في الحياة المدنية

ترفع بعض الأمثال من صورة الرجل وثقافته وتخط من قيمة المرأة.

نجد للمرأة صورة مثالية عندما ترتبط روحيا مع الآخر في إطار " الزوجة، الأم، الأخت، الابنة "

المثل الشعبي له دور فعال في تربيّة وتوجيه سلوك الإنسان.

نجد الكثير من الناس تستخدم هذه الأمثال في حياتهم اليومية وفي حديثهم عن النساء.

على حسب الاستبيان نجد النساء أنفسهن يؤمنّ بهذه الأمثلة، فقد تربت المرأة على قيم معاداة النساء والحذر منهن.

5. خاتمة

ومجمل القول مما سبق هو إنّ الأمثال الشعبية جزءٌ مهم من التراث العربي والتراث الثقافي بجميع أنساقه التاريخية والفكرية، ومصير هذه الأمثال يبقى في أيدي الباحثين والدارسين ، وذلك لمنعه من الاندثار والزوال وخاصة في هذا العصر الذي طغّت عليه العديد من الماديات وبُعِد عن البساطة والأصالة التي أصبحنا بحاجة لها أكثر من قبل ، وربما المثل الشعبي هو المفتاح الذي يمد جسر التواصل بين هاذين النقيضين ، فالمثل الشعبي الجزائري يحمل العديد من المواضيع المختلفة والظواهر الاجتماعية التي تنتشر في مجتمعنا، وخاصة منها الأسرية بإيجابياتها وسلبياتها ، فغالبا ما تدعو الأمثال للحفاظ على الأسرة ، ودون شك فهو يضم مجموعة من المفاهيم العالقة بنسيج أذهان الكثير من الناس ، ولا نستثني منهم شريحة شباب اليوم كما تشير معطيات الاستبيان . وفي الأخير يصعب الوقوف على رأي واحد والجزم في هذا الموضوع ، يبقى مفتوحا لأنّ المثل الشعبي يمتاز بالتنوع والاختلاف ، وخاصة عندما يتعلّق الأمر بالمرأة ، وعلى حسب رأينا فهذه الأمثال المتداولة بين الناس تؤثر بشكل غير مباشر على ذهنية المجتمع وتوجّه سلوكه وانطباعاته على المرأة.

الهوامش

- 1- محمد سعدي، "الأدب الشعبي بين النظرية والتطبيق"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب.ط 1998 ص7-12
- 2- المصدر نفسه، ص12.
- 3- نبيلة إبراهيم " أشكال التعبير في الأدب الشعبي " الطبعة الثالثة ، مكتبة غريب للطباعة ، القاهرة ص83
- 4- أحمد صالح رشدي ، " الأدب الشعبي (ب-ط) دار المعركة ، القاهرة 1987 ص09
- 5- المصدر نفسه، ص14.
- 6- مصدر سابق، أحمد صالح رشدي ص15.
- 7- محمد المرزوقي، "الأدب الشعبي" – الدار التونسية للنشر-تونس 1967 ص 13
- 8- فؤاد علي رضا، " أمثال العرب، دار العودة-بيروت الطبعة1979، 1 ص11
- 9- فؤاد علي رضا، " أمثال العرب، دار العودة-بيروت الطبعة1979، 1 ص11
- 10- المباركفوري ، محمد عبد الرحمان ، تحفة الأحوذ في شرح جامع الترمذي ، المرجع الأكبر للتراث ، الطبعة الثالثة 1995 ص128
- 11- علي كيبيرت ، موسوعة التراث الشعبي لتيارت-2001، ص181
- 12- ابن عبد ربه، العقد الفريد، موقع الوراق، 2010 ص 276، 277
- 13- ينظر عبد الرحمان رباعي ، قال المجذوب " من الرباعيات المنسوبة للشاعر الشيخ سيدي عبد الرحمان ، منشورات الجزائر للكتب 2008 ، ص 18-19

- 14- المرجع نفسه، مقدمة الكتاب.
- 15- فاطمة يوسف العلي ، المرأة في المأثورات الشعبية الكويتية ، مجلة البيان عدد 355 فبراير 2000 ص 24-32
- 16- جليبر دوران ، ورد عند عبد المجيد جحفة " سطوة النهار وسحر الليل ، الفحولة وما يوازنها في التصور